مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٣/٢٠١٢ هـ.ق، العدد ١٩ (٢) ٦٧-٨١

أبوحيان التوحيدي بين النزعة العقلية والإتجاه الصوفي

حميدرضا شريعتمداري[١]

تاريخ الوصول: ١٤٣٢/٣/١٥ تاريخ القبول: ١٤٣٣/٢/٢

يعتبر الكاتب الألمعي أبوحيان التوحيدي من روّاد النزعة العقلية والإتجاه الإنساني في القرن الرابع الهجري، وهو الراوية لماكان يجري من مقابسات علميّة ومفاوضات ممتعة في الندوات الأدبيّة والحلقات الفلسفيّة، ومن خلال مؤلفاته الرائعة تعرّفنا على كثير من الوجوه العلمية في هذا القرن وعلى آرائهم وتوجهاتهم الفكريّة سيّما أبي سليمان السجستاني الذي لولا التوحيدي لبقي مجهولاً مهجوراً.

و للتوحيدي صورة أخرى لم يُكشف النقاب عنها وهي نزعته الصوفية المتمثلة في كتابه الإشارات الإلهيّة. وقد عنيت هذه المقالة ضمن المنهجين الوصفى والتاريخى بالتعريف بها وبمضامينها واتجاهاتها ومناهجها والتأكيد على وسطيّة أبيحيان التوحيدي في إتجاهه الصوفي ونزعته العقليّة وأنه لايوجد تضاد بين الإتجاهين، أو تطّور فكري في المرحلتين، أي مرحلة النتاجات الأدبية والفلسفية ومرحلة الإشارات الإلهيّة والحياة الصوفية التي قضى التوحيدي الشطر الأخير من عمره فيها. والمقالة تلقي الضوء على بعض المفاهيم العرفانية والحقائق الربانية التي اشتمل الكتاب عليها مثل معرفة النفس وتجريدها والغربة.

الكمات الرئيسة: النزعة العقلية، الإتجاه الصوفي، أبوحيان التوحيدي، الإشارات الإلهيّة، معرفة النفس، الغربة.

---

١. الاستاذ المساعد في جامعة الأديان والمذاهب. shariat46@gmail.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

۱. التمهيد

يُعرف أبوحيان لدى الذين يعرفونه بعبقريّته الأدبيّة ونزعاته العقليّة التي جعلته يحذو حذو الجاحظ في قدراته الأدبيّة. وقد صُنف في قائمة الوجوه البارزة العقليّة والفلسفيّة وذلک في القرن الرابع الهجري وهذه القائمة تضمّ يحيى بن‌عدي المنطقي وأبا سليمان السجستاني وأصحابهما وتلامذتهما وأباالحسن العامري وأباعلي مسكويه، وهو وإن لم يكن في مستوى هؤلاء في التنظير الفلسفي إلاّ أنّ له حظا وافراً ودوراً كبيراً في رواية ما كان يجري في الحلقات الفلسفيّة والندوات الأدبيّة التي كانت متأثرة إلى حد كبير بالأجواء العقليّة السائدة في القرن الرابع الهجري في إيران والعراق، وعقليّة هذا القرن قد تمثلت في أبي‌حيان التوحيدي ومؤلفاته القيّمة منها المقابسات والإمتاع والمؤانسة، وهو في نفس الوقت يعتبر من روّاد الأنسنة الإسلاميّة التي لها ميزاتها الفلسفيّة وصياغتها الأدبيّة وقد عبّر محمد أركون عن أصحاب نزعة الأنسنة في القرن الرابع الهجري بجيل مسكويه والتوحيدي[١]. كما أنّ هناک الكثير من العالمين الغربي والعربي قد قدّروا مكانة التوحيدي في إثارة هذه النزعة وروايتها[٢].والذي يراجع مؤلفات التوحيدي سيّما الهوامل والشوامل الذي يشمل أسئلة طرحها التوحيدي وردوداً قام بها أبوعلي مسكويه يذعن بالنزعة الإنسانية الصريحة والعميقة لدى التوحيدي، وقد دوّنتُ الأسئلة التي اعتبرها البعض أرقى بكثير من الأجوبة ضمن ١٥ عنواناً وضمّنتها في كتابي المطبوع حول أبي‌حيان التوحيدي (شريعت مدارى، قم: ۱۳۸۹هـ .ش).

أمّا إذا شئنا الإلمام بمكانة العقل والفلسفة لدى التوحيدي وبنزعاته العقليّة فلنتأمل في أعماله الفلسفيّة، وسنشير إلى بعض آرائه في هذا المضمار مما يدل دلالة واضحة على أنّه عالم متمسك بزمام العقل ومؤمن بصوابه وإصابته: فهو يرى أنّ للعقل آفاقاً أرقى وعالَماً أشرف ونتاجاتٍ ألطف وميزاناً بالواقع ألصق وبرهاناً أوسع وضياءاً أشمل وحظاً أمثل. (*أبوحيان التوحيدي*، ۲۰۰۱م، ص۱۲۷) وهو في موسوعته الضخمة البصائر والذخائر في سرده لمصادره يصنّف العقل في المرتبة الثالثة بعد الكتاب الكريم والسنّة الشريفة، واضعاً إياه كقائد يلجأ إليه وحَكَم يرجع إليه في جميع الأحوال الطارئة حينما يتحير الطالب ويرعن المجادل ويتلكّأ الفصيح وتتوعّر الطريق، فهو أي العقل صلة بين الخلق وخالقه وثروة لا تفنى، ليميز كلام الله ومعرفة نبيه (ص) ونصرة دينه وصيانة توحيده وإحراز ما عنده، وهو عون للتقرب من الله تعالى وتدبير شؤون الحياة و... (ج۱، ص٦).

و قد خصّص التوحيدي المقابسة الرابعة والخمسين في كتابه *المقابسات* بتبيين مكانة النِعم الثلاثه السامية التي تعود سائر النعم إليها وهي العقل والحياة والعافية، ويعتبر العقل أعلاها رتبة وبعد تصريحه بصعوبة تحديد العقل يدخل في تحديده وسرد مراتبه ويشير إلى كلمة ينقلها عن أبي‌سليمان السجستاني تذم المتكلّمين من أصحاب علم الكلام، وترى أنّ ما يستخدمه المتكلّمون ليس هو العقل بل هو شبيه بالعقل أو ظلّه وشبحه، ومن هنا يلاحظ أنّها قد أسرتهم الأهواء النفسيّة والتقليد والعصبيّة والعناد وهم حائرون وبعيدون كلّ البعد عن اليقين مما أدّى ببعضهم إلى القول بتكافؤ الأدلة. وبالمناسبة ينسب أبوحيان إلى الصاحب بن عباد قولاً غريباً يفيد بأنّ العقل «طبع على أن يشهد للباطل كما يشهد للحق» والتوحيدي إذ يفند هذا الرّأي يقول «و لعمري أنّ عقله وعقل ضربائه كذلك»[٣] (*أبوحيان التوحيدى، ۱۹۲۹ م*، ص۲۳۷). أمّا الفلسفة فإنّ أباحيان

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

ينظر إليها بإعتبارها علماً يؤدي إلى التوحيد. (*أبوحيان التوحيدى، لاتا*، ج٣، ص١٣٥) ودواءً يداوي النفوس (*أبوحيان التوحيدى* ١٩٦٤م، ص١٩٠).

وهذه كلها تدلّ دلالة واضحة على المكانة المرموقة للعقل لدى التوحيدي وأنّ العقل إذا استخدم كما هو بعيداً عن الشوائب والأهواء فسوف يؤدي بنا إلى جادّة الصواب، وحتى الشريعة في قوامها وركائزها تفتقد إلى العقل والبرهان.

لكّن برغم هذا فإنّ الذي يلاحظ أباحيان الصوفي من خلال كتابه الإشارات الإلهيّة يجد هناك ما يوحي بأنّ أباحيان اتخذ موقفاً مضاداً للعقل فلنحكم وفقاً لهذا الايحاء والاستيحاء بأنّ صاحبنا يقف مواقف متهافتة أو أنّ له مرحلتين في حياته: مرحلة عقليّة مرّ بها في معظم حياته ومرحلة صوفية لجأ إليها تائباً من المرحلة الأولي في نهاية عمره. ونحن هنا بغية البتّ في هذا الموضوع والتعرّف على أبيحيان التوحيدي بوصفه صوفياً عارفاً يجب أنّ ندرس في صلب موضوعاته.

أبوحيان التوحيدي بوصفه صوفياً

لقد اعتبره ياقوت الحموي – وهو أول من اهتم بالتعريف به وقد رجع وأرجع الآخرون إليه – من شيوخ الصوفية متّسماً بسماتهم الظاهريّة. (الحموي، ١٩٩١م، ج٤، ص ٢٨٨) ومثله ابن‌حجر العسقلاني في *لسان الميزان* نقلاً عن أبي يعلي في *فلك المعاني*. (العسقلانى، ٢٠٠١، ج٧، ص٦٣٧) أما سلفه وشيخه الذهبي أرجع تسمية أبيحيان بالتوحيدي إلى اقتدائه بالفلاسفة المتصوفين حيث يسمّون أنفسهم بأصحاب الوحدة والإتحاد. (*الذهبي، ١٤١٧ق*، ج١٣، ص٦٨). وقد نقل إبراهيم الجيلاني عن ماسينيون قوله أنّ أباسعيد السيرافي قد علّم التوحيدي في ريعان شبابه أسرار علم التصوف (*أبوحيان التوحيدي، ١٩٦٢م*، المقدّمة، ص٣١) وقد أرجع السُبكي السبب في ذمّ الذهبي لأبيحيان في كلماته إلى عداء الأخير للصوفية (*السبكي*، ج٥، ص٢٨٨) كما أنّ آخرين فسروا عداء ابن‌الجوزي الشديد للتوحيدي إذ اعتبره إلى جانب ابن‌روندي وأبي‌العلاء المعرّي من زنادقة الإسلام بل أشدهم في الزندقة بعدائه للصوفية (محيي‌الدين، ١٩٧٩م، ص٦٠) ورأى كرمر في دراسته حول طرد التوحيدي من بلاط المهلّبي – وقد استوزره معزالدولة الديلمي – أنّ ذلک يعود إلى إنتماء التوحيدي إلى التصوف (*كرمر*، ١٣٧٥ش، ص٢٩٧).

١. من خلال دراسة النصوص التي بقيت لنا من مؤلفات التوحيدي فإنّه يتبين أنّه كان ينقد الصوفية أحياناً: «للصوفية إشارات سليمة وألفاظ صحيحة فيها على حشو كثير وفوائد جمّة» (البصائر و الذخائر، ج ٣، ص ٢٧٦) وهو لا يقبل عدم الإعتداد بالعمل والطقوس الشرعية لدى بعض المتصوفين كما برز فيما ينقله التوحيدي عن أبي سليمان الداراني: «إذا استكملت المعرفة في القلب سلب العارف العمل» (نفس المصدر، ج ٨، ص ١٤٥). ومثله تجاهل مكانة النبي الكريم صلّى الله عليه وآله من قِبل الصوفية. (رسالة العلوم، (ملحق الصداقة و الصديق)، ص ٢٠٧)

وهذه السلبيات لا تصدر من صميم التصوف كون «الطريقة قد لحقها حيف لكثرة الدّخلاء فيها كما لحق البلاغة لكثرة مدّعيها»[٥].

أمّا إذا استقصينا قائمة بأسماء كتب التوحيدي وقد فهرسها ياقوت الحموي فإننا سنجد أسماءً توحي باحتوائها على مضامين صوفية وهي *رياض العارفين والرسالة الصوفية*

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

والرسالة في أخبار الصوفية، كما أنّ هناك كتاباً آخر عنون هكذا: *الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي* وقد عدّه الخوانساري (*الخوانساري*، ۱۳٤۸هـــ.ش، ج٤، ص ۲۰۵) نظيراً للكتاب الذي ألفه الصوفي المقتول الحلاّج حول الحج الصوفي الذي يفترض بديلاً عن الحج الشرعي. وهذه الكتب لم يعثر عليها إلاّ أنّ هناك كتاباً رائعاً وصل إلينا قسم كبير منه وهو يدلّ على أتجاه التوحيدي الصوفي، كما أنّه يصنّف في قائمة الروائع الأدبيّة: الإشارات *الإلهيّة*.

معلومات عامّة عن الكتاب

قد تمّ تحقيق الكتاب وطبعه في ۱۹۸۱م بواسطة الأستاذ عبدالرحمن البدوي[٤] ونشرته وكالة المطبوعات في الكويت ودارالقلم في بيروت اعتماداً على نسخته الفريدة التي احتفظت بها المكتبة الظاهريّة بدمشق والتي سُجّل على أولى صفحاتها اسم أبي‌حيان التوحيدي وقد درج الحموي هذا الكتاب في قائمة كتب التوحيدي ولخّصه وشرحه عبدالقادر المقدسي الشافعي المتوفى عام ۱۹۳٤. وعدم التصريح باسم هذا الكتاب في سائر كتب التوحيدي لا يدلّ إلاّ على تأليفه في الشطر الأخير من عمره[٥]. وقد فتح ابن أبي‌الحديد في شرحه على *نهج البلاغة* للإمام علي(ع) باباً عنوانه «أدعية فصيحة من كلام أبي‌حيان التوحيدي» ينسجم تماماً مع سياق ومضامين الإشارات الإلهيّة إلا أنّها غير موجودة في هذه النسخة وربما توجد في جزئها الثاني الذي لم يُعثر عليه حتى الآن. (ابن أبي الحديد، ۱۹٦۷م،ج ۱۱، ص۲٦۹ـــ ۲۷۸).[٦]

ويحتوي الكتاب على مقدمة في أربعين صفحة كتبها الباحث بدوي وتكلّم فيها عن ميزات هذه النسخة وقارن فيها بين كلمات التوحيدي وأحوال الأديب الوجودي فرانتس كافكا ومكتوباته سيمّا أحاديثهما عن الغربة، كما أنه إحتمل أن يكون اقتباس أبي‌حيان واستلهامه هو عن مزامير النبي داود، ولم أجد في هذا الكتاب ما يدعم هذا الإستلهام وذاك التطبيق. لأنّ الإشارات الإلهيّة إما وصف للنفس وحالاتها وإمّا مناجاة ونغمات إلهيّة مستقاة من النصوص الإسلاميّة والتجارب العرفانية التي تمتليء بها الحياة الروحية الإسلاميّة.

و تسمية الكتاب ربما لا تعود إلى أبي‌حيان التوحيدي، لكنها بلاريب مقتبسة من كلمات عبّر بها التوحيدي عن نغماتها: «لأنها إشارات الهية وعبارات إنسية» (أبوحيان التوحيدي، ۱۹۸۱م، ص ۲۳٤)؛ «كثرت العبارة فحقق الإشارة» (السابق، ص ۲٤٦)؛ «والإشارة في الإشارة التجريد» (نفسه ص۳۲۰).

وقد نُظّم الكتاب ضمن أربع وخمسين رسالة مفصولة بعضها عن البعض وينتهي الكتاب هكذا: «تمت المجلّدة الأولى من الإشارات الإلهية والأنفاس الرّوحانية بحمدالله ومنّه ولطيف صنعه ويتلوه المجلّدة الثانية وهي الرسالة الخامسة والخمسون»، وقد فرغ الكاتب من كتابته في جمادي الأولى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

من هو المخاطب بالرسائل

كثيراً ما يتكلّم التوحيدي بصيغة التخاطب بالجمع والإفراد، ولا تكاد تتضح للقاريء هويّة هذا المخاطب أو هؤلاء المخاطبين. وبعض الرسائل موجهّة إلى جماعة يجب اعتبارهم من رفاق السلوك الروحي أو ما يعبر عنهم بإخوان الصفاء وخلاّن الوفاء: «أحبائي على القرب بالتصافي وعلى البعد بالتوافي جمع الله لكم قوامدي المنى وأنالكم بكرمه أفضل الغنى». (أبوحيان التوحيدي، ۱۹٦۲م، ص ٦٦) «سقياً للرسائل التي كانت تجري بيننا وبينكم». (السابق، ص٦۸) وقد يصرّح بأنه ينتظر الرّد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

منهم: «اللهم اني كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتهم بين عبادك... يا أحبّائي إذا قرأتم كتابي فتفضلوا عليّ بجوابي». (نفسه، ص٧٠) وقد يستصرخهم: «يا قوم فإن لم تأخذوا بيدي فإلى من أكِل أمري وعلى من أعرض وفائي وغدري ولمن افرض احتجاجي وعذري... وعلى خدمتكم وشّجت عروقي... فبالحرمة السالفة إلاّ سمعتم صراخي وسدّدتم فاقتي ورحمتم ضعفي». (نفسه، ص ١٦٦).

قد يلوح من بعض الرسائل أنّ التوحيدي يخاطب بعض الأقطاب العرفانية ويستعطفهم: «سيّدي أنظر إليّ سيدي أقبل عليّ، حبيبي أدن منّي، صاحبي إحفظ عنّي وإذا نظرت فارحم، واذا أقبلت فتكرّم». (نفسه، ص ١٠٧)، ربما قد يتصور البعض أنّه بهذه الكلمات الخاشعة يخاطب الله تبارك وتعالى في حين أنّ السطور التالية تظهر أنّه يبدي اشتياقه إلى وليّ الله عزوجل: «فما تقول- ابقاك الله -... فاعطف- يرحمك الله – على شيخ قد تحكم فيه البلوى... فإنك إن بخلت عَلّي بهذا القدر ذهب عشقي لك في الهباء... وتلك والله قاصمة الظهر... والله يهديك إلى التي هي أشبه بمحاسنك». (نفسه، ص١١٠) وقد يتمنّى التوحيدي أن يأخذ شيخه بيده إلى الدرجات العلى: «يا هذا عد بنا إلى متن التوحيد وإلى عمق المعرفة وإلى عُقبان الوجود وإلى آخر مدى التوكّل» (نفسه، ص١٣٧) وأقلّه أنّ يخفف عن عبئه ويُريه الصواب: «وغالب ظنّي يا سيدي أنّك لمساعدتي على هذا الشجو تؤثر إثراً يخف به مابنا ويحطّ عنا ما أثقلنا... وتهدينا إلى الجادّة التي منها جسرنا وعنها زُلنا فإذا أريك الله رأيا فيما سألتك فعرّفنيه حتى ألبس لك شعار الشاكرين وأتلقّاك بتحيّة المساعدين». (نفسه، ص ٥٨)

قد يكون هناك مخاطب يبحث عن عظات التوحيدي وأسراره ويحاول أبوحيان أن يهذّبه ويرقّيه إلى ذروة السنام: «يا هذا أما ترى كيف أديرك من باب إلى باب وكيف أصف لك حالاً بعد حالي وكيف ألقي إليك فنّاً بعد فنّ... وكيف أسارّك بأعاجيب المولى وكيف أجذبك إلى تارة ثم أنجذب معك أخرى فان كنت قد فهمت شغلي فاهمم بشغلك بنفسك»[٧] (نفسه، ص١٧٠) والتوحيدي في نفس الوقت يريده أنّ يخدمه بكشف القناع عن حالاته ومكنوناته:

«يا هذا كم تعذبني وتؤذيني وتحجبني عن مصالح شؤوني بشرح فتوني وفنوني والله ما تحلّ لك. ليس هذا من حق الصحبة ولامن ذمام العشرة ولا من حسن العهد في الصداقة إبق عليّ لي وإلاّ فأبقني لك». (نفسه، ص ٩٨)

مخاطبة الرّحمن

أمّا أغلبيّة خطابات التوحيدي فهي موجهّة إلى أشرف المخاطبين وأكرم الأكرمين، فإنّه كلمّا يخاطب التوحيدي الآخرين يضمّن خطابه هذا أو ينهيه بمناجاة الرّب ويأبى من أنّ التفاته إلى الغير يعني الغفلة عن المبدء المتعالي: «اللهم لا تؤاخذني باقبالي على خلقك وبمسئلتي إياهم على ما هو عتيد عندك وبتواضعي لهم فيما أجده حاصلاً قِبلك فإنّما ذلك فزع مني إلى كل من ادّعاك وتحلّي بحبك وإنتمي إلى خدمتك وبفضل حبّي لك أحب كلّ محبّ لك». (نفسه، ص١١٠) فإن الغير إذا اعتبروا وسيلة إلى الله وشفيعاً إلى حضرته فإنّ الإقبال عليه لا يدلّ على القنوط من رحمة الله: «وليس مسألتي إياهم لليأس منك ولا لتهمة عرضت في نفسي لا تليق بك... وهم إذا أجابوني إلى طلبتي فبأياديك وتوفيقك ولحسن صنيعك فهم سفرائي إليك وشفعائي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

لديك». (نفسه، ص٧٢)

ولا يرى التوحيدي تضاداً بين الإلتفات إلى الغير والإتكال على الله فيعتمد عليهم ويلجأ إليهم: «أيها القوم إنتسبت اليكم وإعتمدت عليكم ونزلت في جوارحكم وعبقت بنسيمكم وألفتُ تراب أرضكم وشربت بكأس ودّكم وعشقت اسمكم ولهجت بذكركم وقلت أنتم وأنتم وحُشت القلوب إليكم وحشدت الجموع إليكم». (نفسه، ص٦٩) وإذا يفقدهم ينعاهم: «فما أشد بكائي بَعدكم على بُعدكم وما أكثر تلفّتي نحوكم وما أبلغ تذكري شجونكم... فقولوا لي الآن كيف التلاقي والمزار بعيد؟ أم كيف العزاء والفؤاد عميدٌ؟ أم كيف الصبر والبلاء ممدود؟ أم كيف التوجه والطريق مسدود؟» (نفسه، ص ٦٨) «ما كان أحلى سَمَرنا معكم وما كان أبهج أنسنا بقربكم»، (نفسه، ص ٦٨)؛ «فيا أحبابي إرحموني في أوصابي ودّبّروا ما بي»، (نفسه، ص ٦٨)؛ «فكيف ولي شهود في محبتكم عدول: ذوب جسم وانتكاث بشاشةٍ وتصعدّ نَفَس وانهمال دمع وانتحال صبوة وخفقان صدر وذلّة نفْس وطاعة أمرٍ و...» (نفسه، ص ٦٩).

وهو يرى أنّ في الإنقطاع إلى الإخوان فوائد جمّة: «و قيل لي ماذا حصّلت منذ انقطعت إليهم؟ وماذا كسبت مند تعلّقت بذيلهم؟ فرفعت عقيرتي وقلت حصّلتُ مكنون الغيب في الشهادة وكُسيتُ عزيز الحال في مرجوّ السعادة وغنيت بهم غني لا أخاف بعده الفقر». (نفسه، ص٧٠).

معرفة النفس

الإشارات الإلهية مليئة بالأوصاف التي يقدّمها التوحيدي عن نفسه وهو لايأبى عن تنقيص نفسه وقد يصرّح بأنّه حين تحديثه غيره و وصفه له يهدف إلى وصف نفسه أيضاً: «يا هذا قد وصفتك و وصفت غيرك معك وأنا غيرك ففي وصفك وصفي وفي وصفي وصفك حتّى نتعاون على نيل هذه الخيرات بالمبالغة في الطاعات» (أبوحيان التوحيدي، ١٩٨١م، ص ١٢٣). وهو يشكو من أنّه إذا لم يتمتع بالدنيا فكيف لا ينكبّ على الآخرة: «لأنّ الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها والآخرة لم تتغلّب على فأكون من العاملين لها». (السابق، ص٦٠). كما أنّه يشكو من تلطخه وتبذخه في الظاهر والباطن: «وأمّا ظاهري وباطني فما أشدّ اشتباهما! لأنّي في أحدهما متلطخ تلطخاً لا يقربني من أجله أحد وفي الآخر متبذخ تبذخاً لا يهتدي فيه إلى رَشَد» (نفسه)، «و أمّا سرّي وعلانيتي فممقوتان بعين الحق لخلوّهما من علامات الصدق ودنوّهما من عوائق الرّق» (نفسه). كذلك يشكو من أنّ نفسه في جميع الحالات المتضادّة ليست بحيث يحمد عليها: لا في السكوت ولا في الحركة، لا في الإنتباه ولا في الرّقدة، لا في القرار ولا في الإضطراب، لا في اليقين ولا في الإرتياب، ولا في التقاعس ولا في الإنتصاب وهو يأسف على ما به من بلائه وعذابه في علله وأوصابه وفي جميع أموره وأسبابه (نفسه).

إنّ مراجعة النفس التي يدعونا التوحيدي إليها تكشف القناع عن الزلاّت التي تهدّد النفس: «أما تراني كيف أترائى لك عياناً وكيف أتوارى عنك خبراً». (نفسه، ص٨٢) وقد أُثر عن الإمام علـــى (ع) قوله: «ما أضمر أحدٌ شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه» (*نهج البلاغه*، الحكمة رقم ٢٦) فكيف يحاول الإنسان أن يخفي باطنه وراء كلماته ودعاويه؟ وهذا يسبب عدم الاعتماد عليه لا في قوله ولا في فعله: «فلا عياني يخبرك عنّي ولا خبري يصدّقك منّي. خفيت في بدوّي لأني متقلب في حالي وبدوت في خفائي لأني متقلّب إلى أمر عالٍ فإذا كلمتُك بلسان الظاهر وفيتك وخنتُ نفسي وإذا ترنّمت لك بلسان

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

الباطن جنيت لك وظلمت نفسي» (نفسه، ص٨٣). يتمّني التوحيدي أنّ يرى نفسه في مرآة الآخر: «يا هذا حدّثني عنّي واسمعني منّي وأقلّ حواشي حدسي وظنّي واثبت الأصناف فيّ وعنّي... لأنّي فرغت من ظاهر قد حُشي بالشرور إلى باطن قد غُشي بالغرور فلم يكن في هذا مقنع ولا إلى ذلك مرجع». (نفسه، ص٩١) وهكذا يبدو للإنسان واقع حاله: «الوّح كالبرق المنتشر فلا أضئ ولا أستضئ. أتوارى في الظلام كالمستتر فلا أغنى ولا غنِي» (نفسه، ص ٢١٤) ويتأكّد هو من أنّه لا يصلح لأن يكون واعظاً وهادياً للغير: «إن وعظت إستحييت من الله من قلّة اتعاظي وأن هديتُ خجلت من شدّة ضلالي». (ص٢٧١)

يرى التوحيدي أنّ في حديث النفس والحديث عنها حياتها: «واعلم أنّ في النفس من هذا الحديث حياة القلوب ومطاوعة الغيوب ومباينة العيوب ومطالبة السيوب و لم يتمّ ذلك للجبان الهيوب الجاهل بالطلوع والغروب العاجز عن السُرى والدؤوب في آفاق هذا العالم المحبوب»؛ «فإذا وصفنا أنفسنا بالغفلة فقد دلّنا على بعض الانتباه لأنّ الغافل لايشعر بغفلته فما أوجب الحمد في هذا المضيق وما أنفع الشكر على هذا التوفيق وما أحسن الوصف بهذا التدقيق وما أشرف المرمى بهذا التحقيق!». (نفسه، ص٨٤) وقد خصّص التوحيدي الرسالة الأخيرة في الجزء الأول من الإشارات الإلهيّة لبيان أهميّة معرفة النفس على لسان الحكماء وتبيين قوى النفس وأحوالها وآثارها باسلوب الحكماء: «زعمت الحكماء على ما أوجبه آراؤها وديانتها من أنّ الوحي القديم النازل من الله قوله للانسان: «إعرف نفسك فإن عرفتها عرفت الأشياء كلّها». وهذا قول لا شي أقصر منه لفظاً ولا أطول منه فائدة ومعنىً وأوّل ما يلوح منه: الزراية على من جهل نفسه و لم يعرفها». (نفسه، ص٣٧٦).

تجريد النفس

وفقاً لرؤية التوحيدي فإن الكمال النفسي لا يتم إلاّ إذا خلع المرء نفسه وعرّى ذاته من نفسه: «إنك لن تقف على حدود هذه المرامي وعلى عواقب هذه الأسامي إلاّ بعد أنّ تخلع نفسك من نفسك كما تخلع قميصك من جلدك وكما تخلع جلدك من لحمك وكما تخلع لحمك من عظمك». (نفسه، ص٨٧). ويقول في موضع آخر: «ولا ييسط لك هذا البساط حتى تصحب كونك بفراق كونك وتبيد في عينك عن عينك وتنأى عن شاهد زينك وشينك وتمحو أثر المكان في أينك وحتى يبقى «أنت» منسلخاً عنك ونعتك منفسخاً عليك... فاذا بلغت هذا الحدّ لم يبق بينك وبينك ضد ولا ند». (نفسه، ص١٤١)

إن التخلّي عن النفس والإقلاع عن الذات في معناه الديني والأخلاقي والفلسفي لايعني إلاّ أنّ تقهر الذات الماديّة السفليّة بسيادة النفس العقليّة العِلويّة الشريفة. وواضح -كما نبّه عليه التوحيدي – أننا لا نتحدث عن نفوس عديدة في شخص واحد (ر. م. ن، ص٣٧٧) بل عن قوى النفس المختلفة التي يجب الأخذ بزمامها والسيطرة عليها بواسطة العقل الإنساني أو القوّة العقلية للنفس: «أن تقبل على نفسك الشريفة بإدبارك عن نفسك أعني أنّ تُقبل على نفسك الشريفة الفاضلة المقتبسة من نور عقلك الحائلة بينك وبين جحيم طلعك وأعني بإدبارك عن نفسك، نفسك الأمارة بالسوء، الوثّابة الطارحة لك بيد العدوّ فافطن لهذه العويصة التي هي إقبالك على نفسك وإدبارك عن نفسك، فإنّ ظاهر هذا القول يحدث تناقضاً ويورث صدوداً وباطنه يحدث اتفاقاً ويورث شهوداً» (نفسه، ص٧٨).

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

وللتوحيدي في كلماته تلميح إلى الفناء كما يفهمه ويدعمه العارف: «وحُل بيننا وبيننا حتى نكون على الصفاء والنقاء بعد الفناء في دار البقاء فإنّ الحيلولة بيننا تصفّي صفاتنا وتطيب حياتنا وتدنينا من فِنائك وتؤهلنا لوفدك وعطائك». (نفسه، ص١٤٤) لكن الذي يهتم به ويؤكد عليه في هذا الكتاب هو تهذيب النفس وتحليتها بالأخلاق الالهيّة: «ولا سبيل لك إلى ذلك إلاّ برفض الرذائل كلّها قليلها وكثيرها وتحلّي الفضائل بأسرها دقيقها وجليلها وهذه صورة إلاهيّة» (نفسه، ص١٢٧). فإنّ للإنسان شطرين شطراً مادياً وشطراً أخلاقياً ولا يكمل المرء إلاّ إذا صلح الشطران: «الإنسان نصفان نصفه خَلْق ونصفه خُلق فإذا صلح نصفاه كمل ما هو به إنسان». (نفسه، ص١٩٠) وبالتهذيب تعبّد الطريق إلى الله العظيم: «و أوّل هذه القصّة هي تهذيب الأخلاق ووسطها أخذ العبر من جميع الآفاق وآخرها الوصول إلى الله العزيز الخلاّق». (نفسه، ص١٩٠)

مكانة العقل

قد نجد عبارات في الإشارات توحي بإعراض التوحيدي عن العقل: «ومتى سمعت في مطاوي حالك ومناشرها وفي مباشر شؤونك ومعاشرها هاتف العقل فلا تحفل به». (نفسه، ص١١٠) «للعقل صلف شديد فإذا قدته إلى التقليد جمح وللحس برق ظاهر فإذا أشرت له إلى التسمح ثاب وعاد وثبت واعتاد والإنسان بينهما أسير إن أراد طاعتهما حادّاه وشاقّاه وإنّ مال إلى أحدهما اجتمعا عليه ودقّاه».[٨] (نفسه، ص١٣٥). لكن التصفّح في مطاوي الكتاب والتمعّن في مضامينه يثبتان أنّ التوحيدي لم يقف في موقف يضادّ العقل ولا يصح القول بأنّ هناك بوناً بعيداً بين أبي‌حيان بوصفه صوفياً وبينه بوصفه من روّاد العقل والفلسفة في القرن الرابع الهجري، لإنّه إذا ركب مطيّة العقل لا يطلق عنانه ويذعن بحدّه ومحدوديّته سيّما قبال الوحي الإلهي والشريعة السماويّة، إذ ينجذب إلى عالَم المعنى ويغرق في بحر التصوف ولايتخلّى عن العقل وآلياته وامكانيّاته: «إن ثبت عقلك في المداحض ولاح لك في أثناء هذه المعارض فأنت المراد بأمر ليس دونه عارض ولا وراءه فارض». (نفسه، ص٢٠٥) أنّ أباحيان الذي يعتبر معرفة النفس أرقى المعارف وأنفعها يرى أنّها لا تتحصل إلاّ في ظلال التمهّر في الصناعات العقليّة وفهمها بدقيقها وجليلها. (نفسه، ص٣٧٧) أمّا الشيء الذي يحذرنا التوحيدي منه هو الغرق في بحر التأمّلات العقليّة البحتة في مجالات لا سبيل للعقل إليها: «اِصف من كدر النفس العائقة لك عن معاني القدس اللائتة بك... ولا تركب بحر البحث فتغرق ولا تغص على عمقه فتطوى». (نفسه، ص١١٠) فمن البديهي أنّ العقل لا يمكنه أن يتطرّق إلى الجبروت: «سُق عقلك إلى ملكوت الله ولا تقحمه في جبروت الله». (نفسه، ص٢٥٥) فإنّه «هيهنا زلقت أقدام المتكلّمين ونتكست أعلام المتحذلقين لأنّهم «سعوا في آياته معاجزين» ونظروا في الآية مستهزئين وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين». (نفسه، ص١٤٠). فإن هناك في الحياة الرّوحيّة أسراراً وغرائب ليس للعقل إلاّ أن يقف قبالها حيران تائهاً: «ثم انظر إلى حيرة العقل في سرّ هذه الحياة». (نفسه، ص٢٤٣) وهل في مستطاع العقل أنّ يهتدي إلى مكنون سرّ الله تبارك وتعالى وهو بكل شي محيط ولا يحيطون به علماً: «كيف تُدِلّ بالعقل على منشئ العقل» (نفسه، ص٢٩٧).

كما يفرّق التوحيدي بين بديهة العقل وروّيته: «لأنّ البديهة تشبثت لحكم القول والتسليم للفطرة الحانية إليه».

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

(نفسه، ص٢١٥) وخلافاً للرويّة «فإنّها وقفت على محل البحث وطريق الفحص وباب التحكم ونقضت سوالخ التقليد ولم تقتنع في القصّة إلاّ بأشدّ التوكيد لأنّ مادتّها عقل موثوق برأيه ومحكوم بشرفه وجميل الأولى والعقبى منتظَر من جهته ولكن وقع التدافع والتصانع لعلل أخرى وهي اختلاف القوى[٩] شتات الهمم وتباين الأحوال وتروّح المقاصد». (نفس) وهذا هو السبب في ثبات الحقائق والمقاصد لدى البديهة دون الرويّة: «وقد سلمت هذه الجملة في البديهة واستمرت لكنّها قلقت في الرّوية واقشعرت». (نفسه) علاوة على أنّ العقل لايرقي إلى مستوى الإيمان فلا يكفي للإلتزام والإقدام: «وليس كلّ من قاده عقله إلى العلم بمراشد الأمور انقادت له نفسه إلى العمل بها، فقد رأينا كثيراً من أهل المعرفة يأمرون ولا يأتمرون ويزجرون ولا يزدجرون». (نفسه، ص٣٨٠)

هذا وقد يكون العقل مكتنفاً بالعناية الربانية فيسلك بصاحبه إلى أعالي المراتب: «او نقطة من عقل قد حفّ بالتأييد». (نفسه، ص٣١٥) «و مسالك العقل النيرة» (نفس) وهذا هو العقل القدسي على غرار تعبير الحكيم إلالهي ابن‌سينا ولا بدّ للمرء أن يخضع أمامه: «بل أفدّي والله عقلاً اشتاق إلى موعود الله». (نفسه، ص١٤٣).

الغربة

مازال وسيظل المجال مفتوحاً أمام المتجّول في مطاوى الإشارات الإلهيّة كي يصطاد دُرر المعاني والجواهر الغوالي،[١٠] إلاّ أنّ المجال في هذه المقالة لا يتسع لأكثر من هذا لذا سأكتفي هنا بالإشارة إلى الغربة والغريب وفقاً لما يعبّر عنهما التوحيدي فقد خصّص رسالة بهما: وألفّ الرسالة الثانية عشرة للرّد على من طلب منه أنّ يذكر له الغريب ومِحَنه وأن يصف له الغربة وعجائبها وأن يضمّن وصفه هذا بأسرار لطيفة ومعان شريفة. (نفسه، ص١١٢) فيبدأ التوحيدي بالمعنى الذي عهدناه عن الغربة: «غريب نأى عن وطن بني بالماء والطين وبعد عن ألاّف له عهدهم الخشونة واللين». (نفسه، ص١١٣) من البديهي أنّ التوحيدي لا يريد الحديث عن الغريب بهذا المعنى، لأنّه لا يليق بهذا الكتاب العرفاني. أنّ الغريب الذي يحاول أبوحيان أن يصفه هو قريب ربما لا يسكن إلاّ في وطنه إلاّ أنّه يستحق الوصف أكثر ممن إغترب عن وطنه: «فأين أنت عن قريب قد طالت غربته في وطنه وقلّ حظه ونصيبه من حبيبه وسَكَنه... أنّ نطق، نطق حزنان منقطعاً وأنّ سكت سكت حيران مرتدعاً وأنّ قرب، قرب خاضعاً وأنّ بعد، بعد خاشعاً... قد أكله الخمول ومصّه الذبول وحالفه النحول». (ن.م)

وهذا هو المعنى الثاني للغريب والذي يتداوله الأدباء والعشاق ويتحدث عنه علماء الإجتماع والنفس، أما الغريب الذي يقصده أصحاب المعرفة الربّانيّة يسمو بكثير عن المعنيين الأوليين. لأنّ الغربة بمعناها الأول تعتبر آفة ونقيصة، وبمعناها الثاني تعتبر داءاً نفسياً أو مشكلة احتماعيّة، ويتطلّب كلّ منهما دواءاً وعلاجاً. أمّا الغربة بمعناها الصوفي فإنّها فضيلة تتجذر في خساسة مرتبة عالَم المُلك والمادّة وقصور أبناء النوع الإنساني عن إدراك الحقائق المتعالية والغريب بهذا المعنى ربما يتمتع بمكانة اجتماعيّة مرموقه، وقد يعيش بين عائلته ومجتمعه وله معاشرته وصداقته وبشاشته، لكنّه في نفس الوقت يحنّ إلى الملكوت والجبروت ويعيش في قلبه وباطنه في أجواء ربانيّة وينظر إلى الدنيا باعتبارها ليست دار قرار ويشتاق دوماً إلى وطنه الحقيقي الذي جاء منه ومستقره النهائي الذي سيصير إليه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

وإليه المصير وهو المآب[۱۱]: «الغريب من أنّ حضر كان غائباً وأنّ غاب كان حاضراً» (نفسه، ٦١٤) والغريب وإن كان قريباً ومكرّماً إلا أنّه في حالاته ومقاماته غريب لا يدرك ومهاجر لا يكتنه ولا يوصف: «لا اسم له فيذكر ولا رسم له فيشهر ولا طيّ له فينشر». (ص١١٥) و«الغريب من إذا ذَكَر الحق هُجِر وإذا دعا إلى الحق زُجِر»، (نفسه) «الغريب في الجملة من كلّه حُرْقة وبعضه فُرقة وليله أسف ونهاره لهف وغداؤه حَزَن وعشاؤه شَجَن»، (نفسه، ص ٦١٦) «الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه، بل الغريب من تمالك في ذكر الله متوكلاً عليه، بل الغريب من توجّه إلى الله قالياً كن من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرّضاً لجدواه» (نفسه، ص١١٧) وهو الغريب بالمعنى الحقيقي: «وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه وأبعد البعداء من كان بعيداً في محلّ قربه». (نفسه، ص١١٥).

فإنّ العارف الواصل وأن كان يسكن مع الناس ويعيش مع الأهل والأحباب إلاّ أنّه غريب عنهم وبعيدٌ عن همومهم وتوجهاتهم، فهمّه ذكر ربّه وفناء حضرته، له مع الله حالات وفي الوجد والمعرفة مقامات: «لا جرم اذا رأيت ذا دين وعقل رأيته شاحب الوجه خفيض الصوت ضئيل الجسم... فهو كالغريب بين الناس يعلم ما هم فيه ولا يعلمون ما هو فيه، مشغول بنفسه معتذر إلى الله تعالي من عجزه عن إقامة مناره وإظهار شعاره». (نفسه، ۲۸۸) ولنختم الكلام عن الغربة بدعاءِ غريبٍ لامس الغربة بمعانيها الثلاثة بقوله: «اللهم إنّا قد اصبحنا غرباء بين خلقك فآنسنا في فِنائك، اللهم وأمسينا مهجورين عندهم فصِلنا بحبائك. اللهم إنّهم عادَونا من أجلك لأنّا ذكرناك لهم فنفروا ودعوناهم اليك فاستكبروا». (نفسه، ص ١١٦)

وما ذُكر سالفاً هي إشارات صوفيّة عرفانية تم اكتسائها بكسوة العبارات في كتاب الإشارات ومغزاها الرئيسي هو الدعوة إلى التوحيد، ولسانها النجوى والموعظة وهو لسان التصوف: «يا هذا! هذا لسان التصوف والتصوف اسم يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة وجملته التذلّل للحق». (نفسه، ص١٤٢) وقد استخدم التوحيدي في كتابه مراراً مصطلحي التصوف والصوفية: «ما أحوجني إلى جسارة بانبساط يرخص لي معك في التصرف وينيخ البلاغة على طريقة التصوف». (نفسه، ص١٥٦) كما أنه يكرّر استعمال مصطلح العارف: «إنّ الحق يناغي العارف في رؤياه للصفاء الذي يكون عليه في تلك الحال... فهناك يرى العارف الغيب شهادةً والمستور مكشوفاً والمظنون مستيقناً، وهذه حال مذكورة بين أرباب القلوب وأصحاب الخِرق السائحين في هذه العرصات»؛ (نفسه، ص١٩٠) «فإنّ الشوق الأعظم والحنين الأعمّ فإنّما هما إلى عارف قد تربّع إلى سرير الرضا واطمأنّ إلى ركن الثقة بالمولى، فإن قال فعنه وأن سكت ففيه وأن تحرك فله وأن سكن فبه وأن اشتاق فإليه وأنّ تمالك فعليه». (ص٢٣٦)

النتايج و الإقتراحات

لقد استند أبوحيان غير مرّة إلى الآيات القرآنية بالتصريح أو بالتلويح والتلميح وقليلاً ما أشار الى السنة الشريفة ومواعظ الأصحاب والعترة وأقوال الصوفية، وهذا مما يدعو إلى العجب والاستغراب لأنّ المعهود من أبي‌حيان التوحيدي في مؤلفات: *المقابسات*، *الإمتاع و المؤانسة* و*البصائر والذخائر* المليئة بالمأثورات والحكايات أن يضمّن كتابه الذي اُريد له أن يكون مثيراً ومؤثراً إشارات ربانية ولطائف عرفانيه وحكايات روحيّة بلغتنا من العرفاء والصوفية وعنهم. ويميّز كتابه عن سائر كتبه والكتب

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]
[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

الصوفية الأخلاقية التـــي تؤلّف لإثاره المخاطب ووعظه وإرشاده. رغم ذلك فإنّنا متأكدون من أنّ أهم مصدر استلهمه التوحيدى هو النصوص الدينيّة والمواريث الصوفية هذا ولكنّ لسانه العام وسياقة الآبي عن صياغة الديانات الخاصّه وصبغة المذاهب الإسلاميّة المعروفة حوّل الكتاب إلى تراث إنسانـــى ونداء إلهـــي يخاطب جميع السالكين ويتكلّم بلسان جميع المؤمنين رغم تنوّعهم الثقافـــى واختلافهم الدينـــي والطائفـــي ويمكن عدّه نموذجاً أمثل للالتقاء الفكرى والمعرفـــي لجميع الديانات فـــي ملتقـــى العرفان وقد يعبّر عنه بالوحدة المتعالية للديانات.

ولا شک أنّ للتصوف مجالاً واسعاً يتطلّب إمعاناً أكثر وأنّ العلاقة بين التوحيدي وبين التصوف مازالت مكتنفة بأنواع ومستويات من الغموض وإنّني كمعجب بالتوحيدي قضى سنين في دراسة حياته وآرائه واتجاهاته وتطلّعاته أقترح على الباحثين والرّاغبين في الإلمام برؤى التوحيدي وتجاربه الفذّة في الحياة الشخصية والسلوک العلمي:

أولاً: التأكد من نسبة كتاب الإشارات الإلهيّة إلى التوحيدي وإزاحة جميع الشكوک التي قد تحاک ضدّ هذه النسبة، رغم أنه لحّد الآن لم يقترح ولم يدّع أحد من الذين التبس الأمر عليهم اسماً آخر يستحق أنّ يوضع مكان اسم التوحيدي باعتباره كاتب الإشارات الإلهيّة.

ثانياً: تشىر سيرة التوحيدي الشخصيّة لا سيّما في الفقرة الأخيرة من عمره التي قضاها في إيران الإسلامية في مدينة شيراز العريقة إلى وجود ملامح صوفية في زيّه وهيئته وسلوكه ونوعيّة اتجاهه الصوفي وانتمائه إلى طريقة من الطرائق الصوفية وإهتمامه بتربية وتزكية الناشئين وزعامته لحلقات الصوفية وما إلى ذلک.

ثالثاً: أوّد – كما لو يودّ بالتوحيدي – لو حصل الدارسون والمنقّبون في المخطوطات والتراثيات الإسلامية على نسخة من كتاب *الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي* الذي ألفه التوحيدي ولم يرتب أحد في انتمائه إليه والذي ألفه التوحيدي على غرار الكتب الصوفية المعروفة، وأنا على يقين من أنّ هذا الكتاب سوف يكشف الستار عن الغموض الذي أحاط بالتوحيدي وبالعلاقة بينه وبين التصوف وميزاته في اتجاهاته الصوفية.

الهوامش:

۱. قتبس من العنوان الذي اختاره المرحوم أركون لأطروحته الجامعيّة التي قدمت لنيل الدكتوراة والتي طبعها فيما بعد عام ۱۹۷۰ الميلادي.
۲. اعتبر مارك بيرجه أباحيان التوحيدي الأنسنة المعاشة؛ أنظر إلي كتابه الذي يحمل نفس العنوان المطبوع في دمشق، عام ۱۹۷۹م، و للعجيلي كتاب مطبوع في دمشق عام ۲۰۰۶ م عنوانه: *النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي*.
۳. لقد وصف التوحيدي في مجال آخر الصاحب بن عباد بانّه ليس عقلاً خالصاً و لا سفهاً محضاً (*أبوحيان التوحيدي، لاتا*، ج۱، ص۵۵) ومن الواضح أنّ التوحيدي يبالغ في قدح ابن‌عباد لانّه كان يأمل منه و من سلفه ابن‌العميد (ابي‌الفضل) مالم يحقق، بل حدث عكس ذلك فقام بذمهما و ثلبهما و من هنا جاء كتابه المعروف «مثالب الوزيرين».
۴. وللكتاب طبعة أخري منقحة قامت بتنقيحها الأستاذة وداد القاضي، بيروت: دارالثقافة، ۱۹۸۲.
۵. يقول في الصفحة ۲۳۶: «أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة».

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

٦. وللدكتور يوسف زيدان رأي آخر يتنافي تماماً مع الرأي السائد الذي يعتبر التوحيدي صوفياً له كتاب *الإشارات الإلهيّه* فإنّه يدل على قوة تصوفه و انتماء هذا الكتاب اليه. راجع مقالته في مجلة *الهلال* المصرية، تشرين الثاني، ١٩٩٥م و هناک كثير من الباحثين المعاصرين ممن يعتبرون أباحيان صوفياً له إبداعه منهم محيي الدين عبدالرزاق و محمد كردعلي و عبدالكريم بن هوازن القشيري و محمد عبدالغني شيخ و أماني فؤاد و احمد الحوفي و علي دب وللتأ كد يمكن الرجوع الي كتاباتهم عن التوحيدي.

٧. يريده حيناً أن يبلّغ تحيته إلى الآخرين: «فحمّل أبا فلان من نقل سلامي ما يطوّحه بل لقّه من طيب كلامي ما يروّحه فقد أفرط عليّ في محبته... و بعد أن تخصّ هؤلاء فاعمم بأجمل تحيّة سائر ذوي الفضل من الصوفية فإنهم ملوك الدنيا و سادة الآخرة». (ص١٥٤)

٨. وله في مجال آخر: «و دعنا في هذه الزاوية الحرجة حتي نتشاكى و نتباكى تارة على فقد حاصل لم يبق، و تارة على طلب مراد لم يرق، و تارة على مدرك بعقل لم يخلص، و تارة على فائت حس لم ينقص». (ص٣٦١)

٩. قد قسّم التوحيدي في *الإمتاع والمؤانسة* (ج١، ص٢٠٥) الأفراد البشريّة إلى خمس فئات من الناحية العقليّة أي من حيث مستواهم في الإدراك العقلي والقوّة النفسانيّة.

١٠. منها أن الإيمان وديعة وعطيّة إذا لم تتم صيانتها فإنها سوف تزول (ص ١١٨) وأنّ السكوت فضيلة (ص٢٥٥) وأنّه – رغم فضل السكوت – لابدّ من الهداية الدينيّة والإيقاظ الروحي، (ص٨٤ و ١٣٦) و وجوب الإحتراز من الغايات العاجلة والدنيويّة في الجهود الرّوحيّة والمسالك العرفانيّة (ص٨٨) والتعدديّة في طرق الهداية و مناهج الوصول (ص٨٤) و ضرورة الشمولية في السلوك والحياة العرفانية «له في نفسه شأن و مع الحق شأن و مع الناس شأن»، (ص٢٣٦) «ما أشوقني والله إلى أن أرى مريداً له من القرائة وِردٌ ومن الركوع والسجود وظيفة ومن الصمت والفكر قسط ومن التسبيح والتهليل ساعة ومن التفكر في الملكوت سهم و من الرغبة في الموعود حرص ومن الإشفاق من الوعيد فَرَق». (ص٢٣٥)

١١. و قد ورد في مصادر الحديث الشيعيّة ما يصرّح بأن المؤمن غريب. ر: *أصول الكافي*، ج ٢، كتاب الايمان و الكفر، الباب المئة، ح٢، ص ٦١٤(طبعة مؤسسة دار الحديث).

المصادر والمآخذ

المصادر

[١] ابن أبي الحديد، *شرح نهج البلاغة*(١٩٦٧م) ، ج ١١، صححه: محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

[٢] ـــــــ، *شرح نهج البلاغة*، صححّه: محمد أبوالفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، المجلّد السادس (الجزء الحادى عشر)، بيروت: دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٦٧م.

[٣] أركون، محمد، *نزعة الأنسنة في الفكر العربي*، ترجمه: هاشم صالح، بيروت: دارالساقي، ١٩٩٧.

[٤] التوحيدي، أبوحيان، *الإشارات الإلهيّة*، صححّه: عبدالرحمن بدوي، الكويت وبيروت: وكالة المطبوعات ودارالقلم، ١٩٨١م.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

[٥] ـــــــــــ، الهوامل والشوامل، صححّه: سيد كسروي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

[٦] ـــــــــــ، الصداقة والصديق، صححّه: إبراهيم جيلاني، دمشق: دارالفكر، ١٩٦٤م.

[٧] ـــــــــــ، مثالب الوزيرين، صححّه: إبراهيم جيلاني، دمشق: دارالفكر، ١٩٦١م.

[٨] ـــــــــــ، *الإمتاع والمؤانسة*، تصحيح: أحمد أمين وأحمد الزين، تهران (النسخة المصوّرة): منشورات الشريف الرضي، بلا تاريخ.

[٩] ـــــــــــ، *المقابسات*، صححّه: حسن سندوبي، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٢٩م.

[١٠] ـــــــــــ، الرسائل، صححّه إبراهيم الجيلاني، دمشق، دارطلاّس، ١٩٦٢م.

[١١] حموي، ياقوت، *معجم الأدباء*، ج٤، بيروت: دارالكتب العلميّة، ١٩٩١م.

[١٢] الخوانساري، محمد باقر، *روضات الجنات*، تهران: مكتبة اسماعيليان، ١٣٤٨ه ش.

[١٣] الذهبي، شمس الدين، *سير أعلام النبلاء*، بيروت، دارالفكر، ١٤١٧ق.

[١٤] زيدان، يوسف، التوحيدي والصوفية، مجلّة *الهلال* المصرية، القاهرة، تشرين الثاني، ١٩٩٥م.

[١٥] سُبكي، تاج الدين، *طبقات الشافعية الكبري*، صححه: محمد الحلو ومحمد الطناحي، بيروت: دارالكتب العلمية، ١٩٦٤م.

[١٦] شريعت مدارى، حميدرضا، أبوحيان *توحيدي وتفكر عقلاني وانساني در قرن چهارم هجري* (التوحيدي والنزعة العقلانية والانسانية في القرن الرابع الهجري)، قم: منشورات جامعة الاديان والمذاهب، ١٣٨٩هـ. ش.

[١٧] العجيلي، محمد علي، *النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي*، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦ م.

[١٨] العسقلاني، ابن حجر ، *لسان الميزان*، بيروت، دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١.

[١٩] كرمر، جوئل، ال.، *احياي فرهنگي در عهد آل بويه* (النهاضة الثقافية في عصر)، ترجمه إلى الفارسية: سعيد حنايي، طهران: مركز نشر دانشگاهي، ١٣٧٥ش.

[٢٠] كليني، محمد بن يعقوب، *الأصول من الكافي*، ج ٢، قم: مؤسسه دار الحديث، ١٣٨٦ ش.

[٢١] محيي الدين، عبدالرزاق، أبوحيان *التوحيدي: سيرته وآثاره*، الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

أبوحیان توحیدی میان رویکرد عقلانی وگرایش صوفیانه

حمیدرضا شریعتمداری[١]

تاریخ دریافت:۸۹/۱۱/۳۰ تاریخ پذیرش۹۰/۱۰/٦

ابوحیان توحیدی را همگان به عنوان ادیب و فیلسوفی می‌شناسند که به زیبایی وبا دقت فراوان دیدگاه‌ها، رویکردها وحلقات فلسفی قرن چهارم را – عمدتاً در عراق عرب وعجم– روایت کرده است. آثار برجسته وی از قبیل *الامتاع والمؤانسة والمقابسات* به خوبی گویای قوت فلسفی وابداع ادبی اوست. از أبوحیان توحیدی چهره دیگری نیز به تصویر کشیده شده است که نشانگر تمایلات ونگرش‌های صوفیانه است. مهم‌ترین کتابی که این تصویر را ارائه می‌کند الإشارات الالهیة است که نثری بلند ومضامینی عارفانه وعاشقانه دارد. برخی در انتساب این کتاب به وی تردید کرده‌اند اما اغلب برآنند که این اثر تراویده ذهن وجان وقلم توحیدی است. آنانی که وی را دارای گرایش‌های صوفیانه دانسته‌اند احیاناً خواسته‌اند زندگی وی را دارای دو مرحله عقلی وعرفانی معرفی کنند، حال آنکه به نظر نگارنده، توحیدی هم در آثار فلسفی‌اش نگاهی قهرآمیز به عرفان وتصوف ندارد وهم در آثار عرفانی‌اش در ستیز با عقل وعقل‌گرایی نیست.

در این مقاله، با رویکرد وصفی و تاریخی ضمن بیان شواهد انتساب این کتاب به توحیدی، مضامین ورهیافت‌های عرفانی آن مورد بررسی قرار گرفته ونشان داده شده است که همان أبوحیان عقل‌گرا وانسان‌گرا با حفظ همان هویت، در کتاب الإشارات در قالب أبوحیان معناگرا وخداجو تبلور یافته است.

واژگان کلیدی: رویکردعقلانی، گرایش صوفیانه، أبوحیان توحیدی، الإشارات الالهیّة، شناخت نفس، غربت.

١. استاد دانشگاه ادیان و مذاهب shariat46@gmail.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]

Abu Hayyan al-Tawhidi: Between Rationalism and Sufism Approach

H.R Shariatmadari[1]

Received: 2011/2/19 Accepted:2011/12/27

Abstract

Abu Hayyan al- Tawhidi is often known as a writer and philosopher who beautifully and attentively narrated the 4th century viewpoints, approaches and philosophical chains – both Arabs and non-Arabs. His most prominent work such as *Al-Imta val Mavaniseh va -Maqabesat* tells his philosophical power and literary innovations. From, Al-Tawhidi, another face is sketched that indicates his inclination and outlook towards Sufism. The most important book highlighting his Sufi image is *Al-Isharat al-Ilahiyeh* that is a collection of long prose with mystic topics. In relation to this book, he has faced some criticism but majority of people believe that the work is outcome of his own mind and pen. Those who consider Tawhidi of being inclined towards Sufism have tried to introduce his life into two stages of rationalism and mysticism. However, it seems, in his philosophical works, al-Tawhidi doesn't have furious outlook towards mysticism and even in his mystic work he does not fight with intellect and rationality.

With the aim to describe relationship of this book with Tawhidi, the current research has tried to study mystic topics and approaches and indicated that same rational and humane Abu Hayyan, with preserving his identity, in the book al-Isharat, crystallized as idealist.

Keywords: Al-Tawhidi; Sufism; Al-Isharat, Al- Ilahiyya; Self; Nostalgia

1 . Assistant Professor, University of Religion and Sects, Qom, shariat46@gmail.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-11-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1433.19.2.7.8]